عرب المؤامرة وغرب صدام الحضارات

فاطمة ناصر

في مقال نُشر بمجلة التّسامح يتناول الباحث المصري صلاح سالم نظرية المؤامرة وصدام الحضارات بين العرب والغرب. حيث يقول الكاتب إنّ كلاً من صدام الحضارات ونظرية المؤامرة ليس سوى وجهين لعقدة حضارية واحدة تعكس روح التعصب والانحياز لهوية معينة. ويقول الكاتب في جملة محيرة إن القيم الإخلاقية كرفض التعصب والإيمان بالتعددية والحرية لا تحقق بمفردها الأهداف التاريخية وإنما تحتاج لمن يتعصب لها، وإنّ العرب والغرب كلاهما لم ينج من فخ هذه الإشكالية، وهي بدورها ساهمت في خلق عقدتي المؤامرة وصدام الحضارات. وهنا لا نفهم ماهي الأهداف التاريخية التي تحتاج لمن يتعصب لها. لا يفصل الكاتب في هذا الشأن ولكنه يُحلل في مقاله أصل عقدتي التعصب لدى العرب ولدى الغرب.

أبعاد التعصب العربي والغربي

يقول الكاتب إنّ التعصب الغربي جاء مرتكزاً على قيمة «الحرية» التي يدافع عنها الغربي بضراوة ويقوده التعصب لها إلى محاولة فرضها على الآخر ولو بالقوة. فيُحلل لنفسه احتلال البلدان بحجة فرض رؤيته عن الحرية المتمثلة في مفهوم «الديموقراطية الغربية». بينما يتمحور التعصب العربي حول «الهوية» وربط تشكيل تلك الهوية بحقبة زمنية سابقة. فيكون التعصب رغبة في العودة إلى الفكر وطرائق العيش التي أنتجها السلف كونها - حسب نظرهم- نموذجًا مثالياً. وفي هذا لا يذكر الكاتب أي تأثير للإسلام في هذا التعصب، على الرغم من أن مثالية الحقبة السلفية جاءت من فكرة قربها من النبي الكريم ونشوء الإسلام الأول.

يقول الكاتب إنّه على الرغم من المنطلقات المشتركة بين عقدة الغرب والعرب المتعصبتين، فإن لهما اختلافات جذرية ساهمت في تكوينها ثلاثة أبعاد أساسية وهي:

١-البعد الأول: جوهر العقدة. يقول الكاتب إن منبع العقدتين ومنطلقاتهما مختلفة. فنرى في عقدة صدام الحضارات أنها نشأت من فكرة تهديد منجزات الحضارة الغربية ومكاسبها، التي نشأت في الأساس بعد الانعتاق الغربي من سلطة الدين التي هيمنت على المشهد وكانت سبب رجعية الحضارة الغربية وتخلفها. وهذا على نقيض دور الدين الذي ساهم في نهضة الحضارة العربية كما يقول الكاتب. وأضيف لا يمكن إشراك الدين في إيجابية النهوض الحضاري دون إشراكه في سلبية تخلفه اللاحق؛ مما خلق بدوره عقدة المؤامرة التي جعلت العربي يخشى الحضارة القائمة التي لا يستطيع مجاراتها.

٢-البعد الثاني : العمق والعمر التاريخي لكلا العقدتين، حيث نرى تفوق نظرية المؤامرة العربية على نظرية صدام الحضارات الغربية في هذا المعيار. فنرى أن جذور عقدة المؤامرة غالباً ما تبرر بالحملات الصليبية على بلاد المسلمين والتي تعود إلى القرنين الحادي عشر والثالث عشر، غير أن الكاتب يعتقد أن عقدة المؤامرة ظهرت بعد ذلك بزمن. ويستشهد بأنه حتى القرن الرابع عشر لم تكن هناك عقدة ضد الآخر، حيث لا نرى في الأدبيات وخاصة الرحالة منهم كابن بطوطة ما يظهر أي عقدة بالنقص أو حتى الإعجاب؛ فهو زار كل البلاد عدا أوروبا. ويعزي الكاتب هذا إلى عدم إعجاب العرب بالحضارة المسيحية الغربية في ذلك الوقت.

في المقابل تعود عقدة صدام الحضارات إلى جذور تبدأ من أواخر العصر الوسيط. حيث يمكن القول إنّ عمر عقدة المؤامرة يمتد لثلاثة قرون، بينما تم طرح نظرية صدام الحضارات كنظرية قبل عقد فقط بواسطة هانتينجتون.

٣-البعد الثالث : الحامل الثقافي للعقدتين. حيث يقول الكاتب في هذا إن عقدة المؤامرة العربية مرتكزة على التيار السلفي الذي يتمحور فكره حول الانغلاق على الذات ورفض الانفتاح خاصة ذلك الذي يأتي من مصادر غربية تخالفه دينياً وثقافياً. ولم يذكر الكاتب ما الذي يجعل الفكر السلفي بهذا الانغلاق؟ ولا يذكر الأدبيات والمصادر التي يرتكز عليها خاصة تلك التي ترفع من شأن المسلم وتدني من أيّ آخر وإن تفوق عليه على الصعيد الإنساني والحضاري. فلا يقول إنّ السلفي يرى نفسه كجزء من خير أمة أخرجت للناس وأن القرآن الذي بين يديه صالح لكل زمان ومكان وهو الكتاب الذي جاء ليكمل ما نقص في باقي الرسالات السماوية. ومن هذا المنطلق الذي لم يذكره الكاتب في مقاله نرى أنّه من الصعب الدخول في تفاوضات مع هذا الفكر الذي لا يقبل بالآخر مهما بدا وديعاً من مبدأ : «وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ... » إلى نهاية الآية التي تجعل من فكرة المؤامرة مترسخة في صميم الذهن السلفي وتجعل من حياكة الدسائس شغلاً شاغلاً للآخر الذي يتربص بالمسلمين والإسلام للأبد. في مقابل الفكر السلفي يستعرض الكاتب تيارين آخرين هما: تيار المعاصرة والتيار التوفيقي. فأما تيار المعاصرة فيراه الكاتب بأنّه تيار يمجد الآخر ويراه ملهماً ومثالياً، ويقول عنه إنه تيار يعلي من العقل ويهمل الروح ويرى في مبادئ الغرب مصححة لحاضره، خاصةً تلك القيم المتعلقة بالديموقراطية وحقوق الإنسان. أما التيار الثالث فهو التيار التوفيقي ويرى الكاتب أنه تيار -عريض- ! لا يعلي من الآخر حتى يجعله ملاكاً ولا يدني منه فيجعله شيطاناً. وإنما يراه بمنطلق إنساني يخطئ تارة ويصيب تارة أخرى. فيستلهم منه ما ينفعه ويلفظ منه ما يضره. ويخلص الكاتب بهذه المقارنة إلى أنّ عقدة المؤامرة ليست سوى حالة «وجدانية» أو «نفسية» وأنّ التيار السلفي دوره محدود في العالم العربي، وهو غير متمكن على الصعيد السياسي حتى نعتبره مؤثراً. حيث يكتفي بدور المعارضة غير المؤثرة بينما كل البناءات السياسية العربية في القرن العشرين تتبنى التيار التوفيقي. وهذا في وجهة نظري قول عجيب؛ فالتيار السلفي الضعيف الذي يقول عنه الكاتب وإن قلّت سلطته السياسية فإنّه مهيمن اجتماعياً. بل إنّ هيمنته الاجتماعية انعكست على قوته التي لازالت تهز ليبيا وسوريا والعراق وتكدر صفو مصر والمغرب العربي وبعض بلدان الخليج العربي بأعمال إرهابية تحاول فيها التأكيد على وجودها وقوتها.

أما عن عقدة صدام الحضارات فيستعرض الكاتب أهم روادها وهم: هانتنجتون وفوكوياما ودانيال بابيس وبات روبرتسون وأوريانا فالاتشي وميشال ويلبيك ومارتن أيميس، الذين يرون في الإسلام خطراً محدقاً بالحضارة الغربية. ويرى الكاتب أنّه على الرغم من أنّ هؤلاء لا يمثلون العقل الغربي النزيه والمنصف إلا أنهم يملكون الأدوات التي تجعل تصوراتهم قابلة لأن تصبح إستراتيجيات محققة، بينما الفكر السلفي العربي الذي يقابلهم محروم من هذه الأدوات ولا يقوى سوى على التنظير. وهذا أمر يخالف الواقع- كما أراه- فهل الحركات السلفية الإسلامية المتطرفة لا تملك الأدوات وهي مكتفية بالتنظير؟ بل قد يرون في وصف الكاتب إهانه لنضالهم الذي كان كما يرونه قولاً وفعلا، وتغييراً للمنكر بدءًا من اللسان ووصولاً للتضحية بالجسد بغية الجهاد في سبيل الله. وفي مقابل كل هؤلاء لا يذكر الكاتب اسماً واحداً لرواد السلفية وأبرز مفكريها.

f_wahaibi@hotmail.com

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.
مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ - ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+
البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net